التأليفُ والترجمةُ والتعريبُ والادخالُ

في العصر العباسي

انقضى عصر بني أُمية ولم يدوّن فيه شيء غير قواعد النحو وبعض الأحاديث واقوال بعض فقهاء الصحابة في التفسير ، ويروى ان خالد بن يزيد بن معاوية وضع رسالة في الكيمياء وان غيره كتب في التاريخ ولكن ذلك لا يجعل عصر بني أُمية عصر تأليف وتدوين اذ لم تتم فيه كتب جامعة مرتبة وإنما كان ذلك أشبه بمذكرات غير مفصلة ورسائل غير حافلة ولا مبوّبة وان جاز لنا ان نعتبر ذلك بذراً أثمر في العصور التي تليه .

ثم اقبل عصر بني العباس بحضارته العظيمة وخالطت العربُ أُمماً ذات مدنية لها عهد قديم بالتأليف وقد كانت القوة الحافظة لكثرة ما توارد عليها من انواع العلوم ومسائل الفنون ما بين لسانية وعقلية ودينية فكانت الحاجة الى التصنيف شديدة ولاسيما بعد ان اهتدوا الى نظام طرقه ممن عاشروا من الامم العريقة في العلوم والحضارة ، فنشطت العقول وهبّت الفِطن وثارت العزائم للجمع والتدوين فهذّبوا ما كتب قبلهم في الصحف ونقلوا ما في صحائف الصدور الى صفحات القراطيس ورتبوا كل ذلك ونظموه وصنفوه كتباً وشد من ازر العلماء في التأليف ما قام به خلفاء الدولة من معاضدتهم وما اسبغوا عليهم من سنيّ الصّلات وجزيل الهبات

مبدأُ النهضة الفكرية في العصر العباسي :

ومبدأُ تلك النهضة المباركة زمن المنصور سنة ١٤٣ فانه تقدم الى الائمة والفقهاء ان يجمعوا الأحاديث والفقه وبذل لهم في ذلك الأموال الطائلة ثم أوعز الى العلماء والمترجمين من السُّريان والفرس وغيرهم ان ينقلوا الى العربية من كتب الألسنة الأخرى فترجم الكثير من الطب والمنطق وغيرهما . وكانت العناية موجهة اولاً الى العلوم الشرعية واللسانية فوضعوا اصول الفقه وصنفوا في فروعه واستنبطوا احكامه ودوّنوا الاحاديث النبوية وتفسير القرآن الكريم وعلوم العربية ووضع علم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العروض ثم استخرجت بعد علوم البلاغة ووضعت لها القوانين والشواهد ثم ألفوا وترجموا كتباً في الطب والهيئة والعلوم الرياضية والطبيعية والفلسفية وتقويم البلدان والتاريخ وغير ذلك حتى زخرت بحور العلم ودوّنت الكتب الحافلة في كل فن ولاسيما في عصر المأمون نصير العلوم وناشرها ، ولم يكد ينقضي صدر الدولة العباسية حتى لم يبق علم مما صنف فيه اليونان والسريان والفرس والهنود وغيرهم إلاّ ترجم منه احسن كتبه وحتى لم يبق علم مما ترجم الا نبغ فيه جماعة نبوغاً بلغ الى درجة التأليف والابتكار أو الاصلاح والتحقيق .

تأثير الترجمة في ذلك العصر

ولا يستهان بما اقتضاه ذلك النقل عن اشهر امم الارض في ذلك العصر من التأثير في الآداب الاجتماعية ، وفي الافكار والعقول والخيال ، وفي اللغة وآدابها ومعارفها ولاسيما ما نقل عن الفارسية لان معظمه في الأدب والتاريخ وتأثيرهما في ذلك اكثر واظهر

وكانت عبارة التأليف من ابتداء تدوين العلوم إلى حوالي القرن الرابع خالية من التعقيد ، حسنة الأسلوب ، متينة التركيب ، قريبة المأخذ ولاسيما علوم الأدب أصولاً وفروعاً حتى كتب القواعد من اللغة .

وأول كتاب حافل جيد التأليف جامع لمسائل النحو كتاب سيبويه . وأقدم كتاب باقٍ في الحديث والفقه موطأ الامام مالك المتوفى سنة ١٧٩ . وأول كتاب عظيم صحيح جامع للتفسير كله ، تفسير الامام محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ وكتابه ايضاً في التاريخ اول كتاب جامع لاقسامه . وأول كتاب ظهر في الادب جامع لفنون كثيرة من ابوابه وضروبه كتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان وكتاب البخلاء وهي للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ (وفي مؤلفات الجاحظ يقول ابن العميد — كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً —) ولم يصنفوا في علوم البلاغة الا بعد ان فرغوا من تدوين العلوم التي تحفظ صحة الكلام العربي من حيث إعرابه وتصريفه ومادته ، واول من وضع كتاباً خاصاً في علم البديع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عبدالله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ ولكن لم تميز مسائل علوم البلاغة الثلاثة بعضها من بعض ولم تبوب او تفصل إلا في عصر بني بويه وأول من وفق الى ذلك شيخ البلاغة عبدالقاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ .

اما عصر بني بويه أو المائة الثانية والثالثة للعصر العباسي فهو عصر الاسلام الذهبي للعلم خاصة ففيه نضجت العلوم على اختلاف انواعها وتم نماؤها وظهرت الكتب الوافية في اكثرها ، وانتقل العلم في مدائن كثيرة من المملكة العربية بتنافس ملوكها وعلمائها في ترقية العلوم وتأليف الاسفار فكان العلم في هذا العصر اكثر ثمراً وأصح نتاجاً لكثرة اماكنه ووفرة الذين عنوا بتعاهده ، وفيه تكونت المعاجم اللغوية وكتب التاريخ والجغرافية .

ويمتاز هذا العصر بكثرة المكاتب الكبرى في مصر والعراق والاندلس وغيرها ، فكانت تشتمل المكتبة منها على مئات الآلاف من المجلدات ، وباشتغال العلماء بالتأليف في كل العلوم التي من بينها فروع لم يهتد الى مثلها اهل التمدن الحديث الا بعد ان تم تمدنهم في القرن الماضي ونضج مثل الاقتصاد السياسي وعلم طباق الارض والهيئة وغيرها من علوم شرحت واخرى كملت وزيد فيها ما شاءت العقول والافهام .

وكانت عبارة التأليف لا تزال راقية بليغة في اكثر الكتب وان امتدت الى بعضها يد السجع ولكن كان متقناً بليغاً .

واما عصر بني سلجوق ، فهو عصر الجمع والاختصار ، وكأني بالعلماء لما رأوا ما توالى على المملكة الاسلامية من الفتوح وما لحقها من التخريب وشاهدوا او سمعوا بضياع الكتب بمصر والشام وفارس والاندلس من الفتن والحوادث عمدوا الى الاحتفاظ بتلك الآثار الباقية واكتنازها بالتلخيص والجمع مع حذف الاسانيد بحيث تجتمع الحقائق الكثيرة في الحجم الصغير ويكون الكتاب الواحد زبدة عشرات من الكتب ، فصنفوا مؤلفات وافية بينها طائفة من المعاجم التاريخية والجغرافية وغيرها وهي أهم ما بين ايدينا من كتب العلم العربي وان كان بعضها قد صدر بعد هذا العصر بسنين قليلة لكن يعد من ثماره . ثم كادت جذوة العقول تخمد وأوشكت حركة العلم ان تفتر وقل الابتكار والافتراح حتى جرف سيل التتار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ذلك الأثر الجميل (١)

وكانت عبارة التدوين في اكثر الكتب سهلة مفهومة وتكلف السجع والبديع كان في القليل منها .

ومن اشهر كتاب هذا العصر القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني (توفي بالقاهرة سنة ٥٩٦) وهو كاتب الديار المصرية وزعيم الطريقة الانشائية الفاضلية ووزير صلاح الدين الأيوبي وطريقته مؤسسة على اصول السجع والبديع إلا انه غالى في التورية والجناس حتى اصبحت الكتابة في ذلك العصر صناعة عليها مسحة الكلفة . ومنهم عماد الدين الكاتب الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ وهو ايضاً عمدة المنشئين ولكنه بالغ في التأنق اللفظي حتى انه استخدمه في كتاب صنفه في التاريخ وترى الإغراب ظاهراً في كتابه (الفتح القدسي) الذي أرّخ فيه فتح السلطان صلاح الدين بيت المقدس فان في عبارته ما لا يكاد يحل عويصه ولا يدرك مرامه إلا بمراجعة معاجم اللغة وطول التأمل واستنطاق بديع الاستعارات ودقيق الكنايات . والاصفهاني هذا معاصر للقاضي الفاضل وبينهما كتب ومراسلات . ومنهم بالاندلس ابن زيدون المتوفى سنة ٦٢٣ والفتح بن خاقان الأشبيلي صاحب كتاب قلائد العقيان المتوفى سنة ٥٣٥ . ومن مشهوري الكتاب في ذلك العصر ايضاً الوطواط المتوفى سنة ٥٧٣

---

(١) ذهب اكتساح المغول للمملكة العربية ببقية العصر العباسي وتشردت آداب اللغة بما اتاه اولئك الاقوام الفاتحون من التخريب والتحريق فقلت المكاتب الكبرى لذهاب اكثرها غرقاً وحرقاً على ايدي المغول في الشرق والاسبان في الغرب واشتغل العلماء في هذا العصر بالجمع والتعليق والشرح ومن بين من نبغ ابن منظور المتوفى سنة ٧١١ صاحب كتاب لسان العرب اوفى معجم لغوي . والفيروزابادي المتوفى سنة ٨١٧ صاحب القاموس المحيط . وظهر في هذا العصر طائفة من العلماء اتقنوا الرياضيات والفلسفة والطب والنجوم . وبعد هذا العصر جاء العصر العثماني وفيه جمدت الافكار واصبحت العربية لغة غير رسمية ثم اشرق — العصر الحديث — وفيه كثرت المطابع وثارت الهمم وانقدت النفوس بالأمل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والحريري المتوفى سنة ٥١٦ والزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ وعلي بن ظافر المتوفى سنة ٦٢٣ وابن الأثير صاحب كتاب المثل السائر المتوفى سنة ٦٣٧ وغيرهم (١)

مصر (العباسية) (لها تتمة) محمود المنجودي